

دلالة البنية ما فوق المقطعية في اللغة العربية (النبر والتنغيم)

د. عزاز حسنية :

أستاذة محاضرة-ب-

شعبة الترجمة-قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الجليلي اليابس، سيدي بلعباس.

أ- النبر ودلالته

يتألف الكلام الإنساني من مجموعة مقاطع صوتية متتابعة، ترتبط فيما بينها لتحيل إلى معنى، وتتفاوت هذه المقاطع من حيث أطوالها وقيمتها الزمنية، مما يجعل بعضها أقوى في السمع، وأوضح من غيرها، فتثير انتباه واهتمام متلقيها، هذا الكلام الذي لا يكتمل وضوحه إلا بإتباع قواعد معينة للغة ما، وإن كان مقبولا « يبقى قاصرا ما لم تمسه يد الصنّاع فتكسبه تلوينا صوتيا يكسو هيكله وفقا لكيفيات تكوينه وطرائق نظمه، حتى يصبح وافيا بأغراضه التعبيرية ومقاصده التوصيلية»¹ ومعبّرا عن معانيه الإيحائية.

ودراسة هذه المقاطع الصوتية، والبحث في تأثيراتها الإيقاعية والدلالية، التي تحدثها في الخطاب الشعري، تأخذ منحى إضافيا إذا ألّمّت بالجوانب الوظيفية للنبر، فالتفاوت الحاصل بين المقاطع لا يقتصر

على الاختلافات الكمية والنوعية فقط؛ وإنما يعود إلى اختلاف مواضع الضغط على مقطع خاص من مقاطع الكلمة أو الجملة أو ما يدعى بالنبر.

إن أصوات اللغة لا تحتفظ بخصائصها المفردة؛ « لأن أصوات الكلمة الواحدة، وأصوات الكلمات تكتسب أثناء الكلام، صفات جديدة، وخصائص لفظية، وذلك نتيجة عادات نطقية متوارثة... وانفعالات نفسية تؤثر في جهر أصوات الكلام صعوداً وهبوطاً، كما تؤثر في ترتيب النغمات المتتابعة في المجموعة الكلامية، مما يفرض على الباحث دراسة عدد من ظواهر الكلام كالمقطع، والنبر، والتنغيم »¹، والتي أطلق عليها بعض العلماء اسم ظواهر ما فوق التقطيع¹ (النبر والتنغيم).

1- مفهوم النبر:

النبر لغة هو الهمز، ونبر الحرف أي همزه، والنبر عند العرب هو ارتفاع الصوت¹، ومنه المنبر: وهو مكان ظهور الإمام إلى المصلين، ونبرة المغني: رفع صوته عن خفض¹.

أما اصطلاحاً، فالنبر في أبسط تعريف له هو « وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام »¹، فالنبر إذن هو الضغط على مقطع خاص من كل كلمة، ليجعله المرء بارزاً أوضح في السمع من غيره من مقاطع الكلمة¹، ولم تخرج تعريفات اللغويين للنبر عن هذا القول، وسمّاه البعض بالارتكاز¹.

ويكون ذلك عن طريق الضغط على مقطع معين بحيث يكسبه ذلك سمة الوضوح السمعي على المقاطع الأخرى، ويتم ذلك « بزيادة

القوة؛ أي زيادة اندفاع الهواء الخارج من الرئتين؛ حيث يشتد تقلص القفص الصدري، والوحدة التي تنطق بمزيد من القوة تكون أكثر إسماعاً (وضوحاً في السمع) من الوحدات الأخرى¹.

ويحدث النبر نتيجة لنشاط جميع أعضاء النطق في وقت واحد، إذ تنشط الرئتان نشاطاً كبيراً، كما تقوى حركات الوترين الصوتيين، إذ يقتربان من بعضهما البعض ليتسرب بذلك أقل قدر ممكن من الهواء، فتعظم لذلك سعة الذبذبات؛ وبالتالي يصبح الصوت عالياً واضحاً ومميزاً عن باقي أصوات الكلمة، هذا في حالة الأصوات المجهورة، أما في الأصوات المهموسة، فيبتعد الوتران الصوتيان بصورة أكبر من ابتعادهما مع الصوت المهموس غير المنبور؛ وذلك ليتسرب مقدار أكبر من الهواء، ولا يقتصر النشاط عند النبر على الرئتين، وإنما يحدث النشاط في باقي أعضاء النطق كأقصى الحنك واللسان والشفيتين¹.

ومن كل ما تقدم نخلص إلى أن النبر هو الضغط على مقطع معين ليزداد وضوحه في السمع أكثر من بقية المقاطع التي تحيط به، ومرجع هذا الوضوح السمعي «إلى عنصرين يرتبط أحدهما بظاهرة علو الصوت وانخفاضه، وهي ترتبط بدورها بحركة الحجاب الحاجز في ضغطه على الرئتين ليفرغ ما فيهما من هواء فتؤدي زيادة كمية الهواء إلى اتساع مدى ذبذبة الأوتار الصوتية، فيكون من ذلك علو الصوت، ويرتبط العنصر الآخر بتوتر التماس بين أعضاء النطق في مخرج الصوت¹». ويرتكز هذا

الضغط أو التوتر على الزيادة في واحد من ثلاثة أمور هي: مدّة المقطع أو شدّته أو حدّته¹.

وقد يكون النبر ثابتاً، له قانون خاص كاللغة التشيكية التي ينبر أصحابها بداية كل كلمة، واللغة الفرنسية التي ينبر منها الفرنسيون آخر الكلمات¹، ويمكن ضم اللغة العربية إلى قائمة اللغات ثابتة النبر، وذلك أنها تخضع لقانون خاص يبين موضع النبر من الكلمة¹.

ويكون النبر حراً في لغات أخرى كاللغتين الإنجليزية والإيطالية، حيث يؤدي النبر دوراً دلالياً في هاتين اللغتين¹، حيث تتغير دلالة الكلمة باختلاف موقع النبر منها « فبعض الكلمات الإنجليزية تستعمل "اسماً" إذا كان النبر على المقطع الأول منها، فإذا انتقل النبر على مقطع آخر من الكلمة أصبحت فعلاً »¹، وذلك نحو كلمة Augment وكلمة Tormen¹، وكذلك كلمة August التي تعني شهر أغسطس أو اسم شخص إذا نبر المقطع الأول منها، وتعني مهيب أو جليل إذا نبر منها المقطع الثاني، وفي اللغة الإيطالية تعني كلمة ancora (مرساة) إذا نبر منها المقطع الأول، أمّا إذا نبر المقطع الثاني، فإنها تعني (أيضاً)¹.

أمّا بالنسبة للغة العربية، فعلى الرغم من عدم وجود أدلة تبين موضع النبر فيها، كما كان ينطق بها في العصور الإسلامية الأولى، لعدم تعرض المؤلفين القدماء لهذا الموضوع¹، وعلى الرغم من أن النبر لا يستخدم كقوانين في اللغة العربية يغير معنى الكلمة، فإن هذا لا يعني إنكاره وعدم إشغاله حيزاً واسعاً من الصرف العربي¹، وهذا ما يراه

دلالة البنية ما فوق المقطعية في اللغة العربية (النبر والتنغيم) أ.عزاز حسنية

أيضا بعض الباحثين الغربيين فيما يتعلق بهذه الظاهرة في اللغة العربية¹.

وإذا كان القدماء لم يفتنوا إلى تحليل وتقعيد وتسجيل ظاهرة النبر كما فعلوا لباقي العلوم العربية الأخرى كالنحو والصرف، إلا أن هذا لا يمنع من وجود قانون تخضع له هذه الظاهرة بشكل منتظم، يمكن ملاحظته من خلال ما ينطق به قراء مصر في العصر الحديث¹.

2- أنواع النبر:

قسم « تمام حسان » النبر إلى نوعين رئيسيين¹:

1. نبر القاعدة: ويصفه بالصمت؛ لأنه يختص بالصيغة المفردة والكلمات التي تأتي على شاكلتها، أو ما يسمى بنبر النظام الصرفي.
2. نبر السياق: أو نبر الاستعمال والجمل المنطوقة، ولهذا النبر أثر سمعي يرجع إلى أسباب عضوية محددة.

والفرق ما بين « النبر في الصرف والنبر في الكلام هو فرق ما بين مقررات القاعدة ومطالب السياق »¹، فالنبر في الكلام هو نبر الجمل المستعملة فعلا، وهي ميدان الظواهر الموقعية.

ولنبر الكلمة درجات ثلاث، تستند إلى مبدأ الوضوح والبروز والارتكاز للمقاطع¹، وهي:

1. النبر القوي أو النبر الأولي، وقد سمي كذلك بالنبر الرئيسي¹، ويكون في كل كلمة.

2. النبر المتوسط أو الثانوي: يكون في الكلمات التي تشمل على عدد من المقاطع يجعلها في وزن كلمتين، مثل: كلمة "استغفار" فإنها تشمل على نبر أولي على المقطع "فا"، وآخر ثانوي على المقطع "تغ"¹.

3. النبر الضعيف¹: يأتي بعد النبرين: الأولي والثانوي.

وقد بني هذا التقسيم للنبر على أسس ثلاثة، وهي:

1. زيادة شدة الصوت.

2. ارتفاع نغمته الإسماعية.

3. امتداد مدته الإنتاجية¹.

3- مواضع نبر الكلمة في اللغة العربية:

للنبر في اللغة العربية أربعة مواضع¹، وهي:

1/ النبر على المقطع الأول:

يقع النبر على المقطع الأول في ثلاث حالات:

أ. إذا توالى في الكلمة الواحدة ثلاثة مقاطع من النوع الأول (القصير المفتوح) والذي يرمز له بـ (ص ح)، وذلك نحو: كَتَبَ - ضَحِكَ - جَبُنَ، وفي هذه الحالة ينبر المقطع الأول من الكلمة، والمتمثل في: الحروف ك - ض - ج. ومن الكلمة الأولى، في نحو قوله تعالى: (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز)¹.

ب. إذا اشتملت الكلمة على أكثر من ثلاثة مقاطع شريطة أن تكون الثلاثة الأولى منها من النوع الأول (القصير المفتوح)، وذلك نحو "مَلَكَة" فإن النبر يقع على المقطع الأول المتمثل بالحرف (م).
ج. إذا كانت الكلمة تتكون من مقطع واحد أي أحادية المقطع، ويحدث ذلك في حالة الوقف مع كلمات مثل: يَأْسُ - بَابُ، وتتكون الكلمتان من مقطع واحد رمزه ص ع ص ص، وفي هذه الحالة يقع النبر على الكلمة كاملة.

2/ النبر على المقطع الأخير:

ويتحقق إذا كان المقطع الأخير من النوعين الرابع والخامس¹ (الطويل المغلق) و(القصير المغلق بصامتين)، ويرمز لهما بالرمزين (ص ح ح ص) و (ص ح ص ص) في حالة الوقف، نحو قول الله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)¹، فالمقطع المنبور من كلمة نستعين هو المقطع الأخير "عين" (ص ح ح ص).

أو أن يكون المقطع الأخير من النوع الخامس، نحو قول الله تعالى: (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)¹، والنبر في كلمة "المستقر" يكون على المقطع الأخير "قر"، قَرَزْ (ص ح ص ص).

3/ النبر على المقطع قبل الأخير:

يقع النبر على هذا المقطع، إذا لم يكن المقطع الأخير من النوعين الرابع أو الخامس، ولم تتوال في الكلمة ثلاثة مقاطع من النوع القصير المفتوح (ص ح)، وذلك نحو قوله تعالى: (وإن يشأ يذهبكم آيها الناس

ويأت بأخرين¹، فكلمة "يُذْهِبُكُمْ" يقع النبر فيها على المقطع قبل الأخير والمتمثل في "هَبْ" من النوع الثاني (ص ح ص).

4/ النبر على المقطع الذي يسبق ما قبل الأخير:

ولهذا الموضع من النبر عدة حالات منها:

أ. أن يكون المقطع الذي قبل الأخير، والمقطع السابق له من النوع الأول (القصير المفتوح)، وذلك نحو: اضْطَرَبَ - انْعَقَدَ، حيث يقع النبر في هاتين الكلمتين على حرفي ط، ع.

ب. أن يكون المقطع الأخير من النوع الثالث (القصير المغلق)، والذي يرمز له بالرمز (ص ح ص)، والمقطع السابق له من النوع الأول، وذلك نحو كلمة (قَدَّمَكَ) في حالة الوقوف، فإن النبر يقع على المقطع (قَدَّ) الذي يعتبر سابق للمقطع قبل الأخير.

ج. أن يكون المقطع الأخير من النوع الثاني (المتوسط المفتوح)، والذي يرمز له بـ (ص ح ح) في مثل كلمة "اضربوا" فإن النبر يقع فيها على المقطع السابق لقبل الأخير وهو المقطع الأول الذي يتمثل في (أضْ).

وإذا كان ما سبق من الحديث عن النبر، قد سماه "تمام حسان" بالنبر الصرفي؛ فإنه قد تحدث عن النبر السياقي، والذي سماه أيضا بالنبر الدلالي، والذي وصفه بأن يكون تأكديا أو تقريريا، ولخص الفرق بين التأكدي والتقريرى، بأن قوة دفعة الهواء في النبر التأكدي أكبر منها في

التقريري، كما أن الصوت يكون أعلى في النبر التأكيدي منه في التقريري¹.

4- دلالة النبر في اللغة العربية:

تكمن أهمية النبر في اللغة العربية من خلال الوظيفة التي يؤديها، حيث يتمتع بسمة « صوتية وظيفية لها قيمة دلالية في التوجيه، إذا استطاع أن يحقق الغرض القصدي، وهنا يعتبر من الملامح التمييزية، أو التنوعات الصوتية التي تنوع الدلالة ويعتمد عليها السياق »¹.

ويحمل النبر معنى ثانوياً تكاد تجمع عليه كل اللغات، هذا المعنى يعمل على التأكيد والدلالة على الانفعالات، ولا تخرج اللغة العربية عن هذا الإجماع حيث يستخدم فيها النبر، وقد أقرّ بعض الباحثين العرب بأهمية النبر في التفريق بين المعاني، وساقوا الأدلة على استخدام العرب القدامى له، وعلى وجوده في اللهجات العربية¹.

ويؤدي النبر دوراً في « تفاعل الدلالات أو نشاط السياق »¹، والنماذج عديدة تدل على ذلك التفاعل، نحو ما ساقه "تامر سلّوم"؛ ليوضح دلالة النبر في شحن المعنى بعاطفة الشاعر.

في قول ذي الرمة:

وقفتُ على رُبْعٍ لَمِيَّةٍ نَاقَتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأَخَاطِبُهُ
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبْنَتْهُ تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ

في هذا النموذج يربط "سلوم" بين اجتماع بحر الطويل والنبر من جانب، وإحساس الشاعر بالأسى والحيرة من جانب آخر، حيث يزيد هذا الاجتماع من إحساس الشاعر بالضيق والغربة، ويترك له فرصة حتى يسترجع أوهامه وذكرياته التي يعيش عليها، ويرى أن وقوع النبر على أربعة مقاطع طويلة في الشطر الأول من البيت الثاني يجسد مواقفه الوجدانية ويعمل على استمرارها¹.

ولم يخلُ البيتان من وقوع النبر على المقاطع القصيرة، وقد علل "سلوم" ذلك بأنه « منح الشاعر قدرة في أن يلتمس في أعماقه صوتاً سواء يأنس إليه ويطمئن عنده »¹، وهي بدورها أعطت للمنازل الموحشة قدرة على الحديث والنطق من ثنايا السياق.

وللنبر دلالة واضحة إذا وقع على كلمة بعينها بغرض توكيدها أو التعجب منها أو إنكارها، أو التلميح إليها، أو الإشارة إلى غرض خاص، ونرى ذلك في قول "إبراهيم أنيس": « [هل يعقل أن تنضخ العين في وسط الصحراء في ثوان]، فيمكن أن يزيد الضغط أو النبر على "وسط الصحراء" فيصبح موضع الغرابة أن تنبثق بئر النفط في وسط الصحراء، وأن هذا من غير المؤلف في مهنة التنقيب عنه (...) أما إذا زاد المتكلم الضغط أو النبر على "في ثواني"، كان محل الغرابة أن تتم مثل هذه العملية المعقدة في مثل هذا الزمن القصير »¹، فأينما وقع النبر على كلمات هذه الجملة كان موضع الغرابة والتعجب.

ونرى ذلك أيضا في هذه الجملة: هل سافر أخوك أمس؟ فإذا نبر المتكلم لفظ "سافر"، هذا يعني أن المتكلم يشكّ في حدوث السفر ظنا منه أن حدثا آخر قد تم غير السفر، وإذا نبر لفظ "أخوك"، فإن المتكلم يشكّ في فاعل السفر، وإذا نبر لفظ "أمس"، فيُفهم أنه شكّ في تاريخ السفر¹.

وهكذا يتضح لنا أن وظيفة النبر في اللغة « لا تقتصر فقط على إعطائها إيقاعها الخاص بها، وإنما يقوم بدور وظيفي كقيمة صوتية لإظهار التباين الدلالي على المستويين الصرفي والتركيبى »¹، أي على مستوى السياق.

ب - التنغيم ودلالته

1. مفهوم التنغيم:

قد يختلف معنى جملة عن أخرى باختلاف النغمة الصوتية التي يصدرها المتكلم، هذا الأداء الكلامي للدلالة على المعاني المختلفة، هو استعمال تقابلي لأغراض متنوعة، كالتقرير، والاستفهام، والتنبيه، والتعجب، فتجد المعنى متغيرا بتغير النغمة الصادرة من المرسل إلى المرسل إليه، هذا التناغم الصادر عن المتكلم والذي يحسّ به السامع تسميه الصوتيات بـ "التنغيم".

وللتنغيم حضور في تراثنا اللغوي، ومن الثابت فيه أنه لم تؤثر عن المتقدمين من النحاة واللغويين العرب دراسة نظرية مفصلة لظاهرة

التنغيم¹، وإنما تناولوها ضمن المسائل اللغوية، وما بلغنا من ومضات ينبئ عن إدراكهم لأهمية موسيقى الكلام في عملية البيان.

ففي نص الجاحظ: «لا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف، وحسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدّل والشكل والتقتلوثني، واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور»¹، ويتضح من هذا القول وعي صاحبه في إجلاء ما لم تستطع عليه الأصوات في سياقاتها التنظيمية، كما التمس في بلوغ المرامي الدلالية المقصودة من السلسلة الصوتية أن تكون مقرونة بما اصطلح عليه (الدّل، والشكل، والتقتل، والتثني)، مما له القدرة على إضفاء حالة البيان وإكساب السياق قبولاً حسناً وقوة في إيصال الدلالة وإسراعاً في الفهم.¹

ومن نماذج وعي اللغويين القدامى لهذه الظاهرة أيضاً، ما ساقه "ابن جني" أثناء حديثه عن الصّفة ودلالة الحال عليها، على حدّ عبارته والحديث المنسوب لصاحب الكتاب "سيبويه"، فيقول: «وقد حُذفت الصفة ودلت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم يسير عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل وكأنّ هذا إنّما حذفت فيه الصفة لما دلّ من الحال على موضعها، وذلك أنّك تحسّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أن نحو ذلك، وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأملت، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً! فتزيد في قوّة اللفظ ب (الله) هذه الكلمة، وتتمكّن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها

(وعليها) أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك، وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً! وتمكّن الصوت بإنسان وتفتحّمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك. وكذلك إن ذمته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطّبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئماً أو لحزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك»¹.

ففي هذا النص المطول الممتع - الذي فضّلت إيراد كاملاً لأهميته - تتداخل ظاهرتان: النبر والتنغيم، لبلوغ الدلالة المقصودة، فاستعمال ابن جني لكلمات: التطويح، والتطريح، والتفخيم التي من بين ما تدلّ عليه معانيها اللغوية مدّ الصّوت وإعلائه، فهي بهذه المعاني تلامس مفهوم النبر كما يعرفه الدّرس الحديث. وما يزيد في تأكيد هذه الدلالة أيضاً قوله: «فتزيد في قوّة اللفظ (الله) هذه الكلمة، وتتمكّن في تمطيط اللّام وإطالة الصوت بها»¹، فهذه العبارات تكاد تفصح عن مفهوم النبر كما هو في الاصطلاح العلمي الحديث¹.

أمّا إشارته إلى التنغيم، فتتجلى في قوله: «وكذلك إن ذمته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطّبه فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئماً أو لحزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك»¹، والظاهر أن إنهاء القول بإشاحة الوجه بعد التطويح والتطريح وتمطيط اللّام وإطالتها يدلّ دلالة قاطعة على مروره بأكثر من تغيير موسيقي ليفضي إلى تنغيم يؤدي إلى الدلالة المقصودة¹.

ونسوق نصّاً آخر لابن جني ربّما يكون أكثر وضوحاً من سابقه، ومؤكداً لما قلناه عن إدراك «ابن جني» لظاهرة التنغيم في العربية ودورها، وهو من باب (في نقض الأوضاع إذا ضامّها طارئ عليها) يقول فيه: «ومن ذلك لفظ الاستفهام، إذا ضامّه معنى التعجّب استحال خبراً، وذلك قولك: مررت برجل أيّ رجل، فأنت الآن خبر بتناهي الرجل في الفضل ولست مستفهما (...) ومن ذلك لفظ الواجب، إذا لحقته همزة التقرير عاد نفياً، وإذا لحقت لفظ النفي عاد إيجاباً، وذلك كقوله سبحانه وتعالى: (ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ) ¹ أي ما قلت لهم، وقوله تعالى: (اللَّهُ أَذُنٌ لَكُمْ) ¹ أي لم يأذن لكم، وأمّا دخولها على النفي كقوله تعالى: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) ¹ أي أنا كذلك» ¹، وهذا النص يوضح إشارة ابن جني للتنغيم وضوحاً تاماً، ذلك لأن الأساليب التي ذكرها لا تتحقق إلا بصورة تنغيمية.

هذه الظاهرة التي عرفها اللغويون العرب القدامى دون الإشارة إليها بمصطلح التنغيم، كانت لها أهمية في السياقات التنظيمية للمتكلّم، وإذا اتجهنا صوب معاجم اللغة للاطلاع على ما حملته في مادة "نغم"، وجدنا في معجم العين أن كلمة النّغمة يقصد بها: «جَرَسُ الكلام وحُسْنُ الصَّوْتِ من القراءة ونحوها». ¹ وأورد ابن منظور أن النغم الكلام الخفيّ، وهو أيضاً حسن الصّوت في القراءة، أو الغناء، وهو جرس الكلام، وحسن الصوت ¹.

كما كان للفلاسفة نصيبهم في تناول النغمة على مستوى الكلمة المفردة، واللحن بمعنى التنغيم على مستوى الكلام، ومن هؤلاء "الفارابي" الذي أفرد نصوصاً للنغمة واللحن (التنغيم)، فتارة يزاوج بينهما، وتارة أخرى يفصل بينهما، ومما اهتمدى إليه أن اللحن (التنغيم) يؤلف من النغمات المتناظرة من حيث الحدة، والثقل، أو الشدة واللين، أو الارتفاع والانخفاض، وأنه في تشكّله، أي اللحن، يتدرج من الحدة إلى الثقل، أو ينساب من الثقل متصّداً نحو الحدة. فقد نص على أنّ الألحان « التي أجزاؤها الأوّل حادة وأواخرها ثقيلة، إنّما تؤلّف باستعمال الأنواع آخذة من جانب الأحد إلى جانب الأثقل، وعكس ذلك باستعمال الأنواع آخذة من جانب الأثقل إلى جانب الأحد، أمّا التي إحدى أجزائها نغمها ثقيلة والأخرى حادة إلى أن تنفذ أجزاؤها، فإن صنعتها يخلط بين الأنواع المتناظرة، وكذلك التي يكثر فيها الارتفاعات والانحدارات وتتوالى نغمها على أن ينحطّ في بعضها وترتفع في بعض، فهو أن يخلط بين الأنواع المتناظرة»¹، كما استخدم مصطلح "اللحن" للدلالة على معنى "التنغيم" فقال: «اللحن هو جماعة نغم يمكن أن تقترن بها الحروف التي تتركّب منها ألفاظ دالة على معان»¹.

أمّا من منطلق الدرس الصوتي الحديث، فإن التنغيم هو «ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام»¹، وقد عرفه محمود السعمران بأنه: «المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع (الصعود) والانخفاض (الهبوط) في درجة الجهر في الكلام»¹، وقد سماه إبراهيم أنيس بموسيقى

الكلام¹، ويحدث التنغيم كنتيجة للتغير في نسبة ذبذبة الوترين الصوتيين الذين يحدثان نغمة موسيقية¹، وهو «موجود في معظم اللغات»¹.

وقد تكون النغمة في وضع صعود من أسفل إلى أعلى على المقطع الذي وقع عليه النبر، وتسمى في هذه الحالة بالنغمة الصاعدة، أما إذا نزلت من أعلى إلى أسفل على آخر مقطع وقع عليه النبر فتسمى بالنغمة الهابطة.¹ وهكذا فإن النغمات ترد بإمكانات مختلفة: نغمة مستوية، ونغمة هابطة، ونغمة صاعدة، ونغمة هابطة صاعدة، وأخرى صاعدة هابطة.¹

2. دلالة التنغيم في اللغة العربية:

تجمع كتب الأصوات على أهمية التنغيم في الدلالة، فقد أكد "السعران" بقوله: «إن التغيرات الموسيقية في الكلام التي ندعوها التنغيم، تستعملها اللغات المختلفة استعمالات مختلفة، فعن طريق هذه التغيرات يتوصل كثير من اللغات إلى التعبير عن الحالات النفسية المختلفة، وعن المشاعر والانفعالات، فتستعمل تنغيما خاصا لكل من الرضا، والغضب، والدهش والاحتقار إلى آخره»¹، أما "تمام حسان"، فيرى إمكانية وجود وظيفة نحوية للتنغيم في تحديد الإثبات والنفي في جملة خالية من الاستفهام، وذلك برفع الصوت وخفضه بطريقة تختلف في الإثبات عنها في الاستفهام¹، بل يذهب إلى أبعد من ذلك في قوله: «والتنغيم في الكلام يقوم بوظيفة التقييم في الكتابة غير أن التنغيم أوضح من التقييم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة»¹.

ويؤيد أحد الباحثين آراء سابقه في الوظيفة الدلالية للتنغيم ويرى أنه يؤدي «دورا فاعلا في التقرير والتوكيد والتعجب والاستفهام والنفي والإنكار والتهكم والزجر والموافقة والرفض والقبول وغيرها من أنواع الفعل الإنساني كالغضب واليأس والفرح والحزن وبيان الحال والغنى والفقر والشك واليقين والإثبات واللامبالاة والإقناع عن طريق التنغيم في الدرجات التنغيمية»¹.

ويحدّد التنغيم بحسب طبيعة الجملة أو نوعها « فنجد مثلا أن الجملة المثبتة تكون ثابتة التنغيم في حين أنه يرتفع في الجملة الطلبية، ويرتفع أكثر نسبة للجملة التعجبية. وهذا ما يحصل بالنسبة للكلام المنطوق الملفوظ حيث تنوب عنه في الكتابة علامة الاعجام والتقيط. ويخبرنا التنغيم أيضا عن هوية المتكلم، عن جنسه، عن سنه، وعن حالته النفسية أو الجسمية»¹، أي أن درجات ارتفاع وانخفاض التنغيم، يساعدنا على التمييز بين أنواع الجمل ومعانيها المقصودة.

أمّا "عصام نور الدين" فإنه يظن ظنا قويا بأن « "سياق الحال"، الذي يحدّد حالة الناطق (أو المرسل) والسامع (أو المتلقي)، ونوع الرسالة، ووجود مستمعين أو عدم وجودهم.. ونوعية المستمعين.. وحالتهم النفسية والاجتماعية، والثقافية والسياسة. كل أولئك قد يساعد، أيضا، في تنغيم الجملة أو العبارة تنغيما خاصا ويعطيها معنى محدّدا»¹؛ أمّا "مصطفى حركات"، فيرى أن الخطاب الإنشائي في جملة (جاء الطفل) يكون الاتجاه في آخرها نحو ارتقاء طبيعي للعضلات، بحيث

يناقض المنحى النغمي بخلاف جملة الاستفهام (هل جاء الطفل) والتي يكون الاتجاه فيها نحو الارتفاع بسبب الضغط المتزايد في أعضاء النطق¹. وعلى الرغم من إجماع علماء الأصوات على وجود وظيفة دلالية للتنغيم إلا أنهم أيقنوا أن هذه الوظيفة تختلف من لغة إلى أخرى، ولعل اللغة الصينية هي أكثر اللغات تأثراً بالتنغيم من حيث الدلالة¹، إذ «تعد درجة الصوت أو نغمته جزءاً متأصلاً من الكلمة، وقيمتها الفونيمية تعادل تماماً قيمة أصوات العلل، أو الأصوات السواكن»¹، ومثال ذلك، كلمة (فان)، في اللغة الصينية، فإنها تؤدي معانٍ لا علاقة بينها هي: (نوم، يحرق، شجاع، واجب، يقسم، مسحوق) وليس هناك من فرق سوى النغمة الموسيقية في كل حالة.¹

أما بالنسبة للغة العربية، فيبدو أنها من أقل اللغات تأثراً بالتنغيم، حيث رأى بعض الباحثين أن التنغيم في العربية ليس من النوع التمييزي¹، وتكاد تنحصر استخداماته في التفريق بين الجمل الخبرية والاستفهامية وكذلك التعجبية.¹

يتضح مما سبق أن للتنغيم دوراً مهماً في إضفاء دلالة معينة على الكلمة أو الجملة المنغمة، ولا شك أن الجملة قد تفهم بمعانٍ عديدة مختلفة عن بعضها البعض حسب درجة التنغيم التي قيلت فيها.